حكمة الأصوام في كنيستنا

قداسة البابا تواضروس الثاني

الأصوام الأربعة الكبيرة (من حيث المدة) هي: صوم الميلاد، والصوم الكبير، وصوم الرسل، وصوم السيدة العذراء، الأصوام الصغيرة هي: صوم يونان، وصوم الأربعاء والجمعة، والبرامون.

جسم الإنسان به أجهزة تعمل مثل: الجهاز التنفسي، الجهاز الهضمي، الجهاز العصبي، الجهاز العضلي، إلخ. وكل جهاز وظيفة، وله صفة، وله عمل. هكذا الإنسان الروحي له ما يسمى بالجهاز الروحي، هذا الجهاز الروحي مكوَّن من أربعة أعضاء:

١. الأذن ٢. العين
٣. الفم ٤. القلب

والحقيقة إننا عندما ندرس هذه الأصوام والقراءات الكنسية الخاصة بها، نكتشف الحكمة وراء كل صوم من هذه الأصوام فنجدها شيئًا رائعًا يفوق التفكير العقلي. فهذه الأصوام الأربعة الكبيرة ترتبط بصيانة وإصلاح الجهاز الروحي في الإنسان. لأن الحواس هي مداخل الخطية، ولذلك، بحكمة علوية، وضع الآباء المسترشدين بالروح القدوس وبالكتاب المقدس هذه الأصوام الأربعة، بهدف أن يلتفت كل منا إلى الجهاز الروحي في حياته. وأن تكون الأصوام فترات توبة جماعية لإصلاح الجهاز الروحي الخاص بكل منا.

صوم الميلاد (الأذن)

يعتبر هو أول أصوام السنة الكنسية (التي تبدأ بشهر توت بحسب تقويم الشهداء). والكنيسة ترتب لنا شيء جميل في النصف الأول من شهر هاتور قبل أن يبدأ صوم الميلاد، وهو قراءة إنجيل مثل الزارع في الأحد الأول وفي الأحد الثاني، وفي نهايته: "مَن لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ" (مت لو ٨: ٨؛ مت ١٣: ٩)، وكذلك في الأسبوع الثالث: "مَن لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ" (لو ١٤: ٣٥)، ثم في الأحد الرابع تُقدرأ قصة الشاب الغني. وهو شخص لم يكن له سمع روحي وهنا تكمن المشكلة.

صوم الميلاد هو صوم البداية والاستعداد لحياتك الروحية، وهدفه الأول هو أذنك.

الأذن مهمة، لأنها دائمًا مفتوحة، وتعمل في كل الأجواء، وفي كل الاتجاهات، وهي حساسة جدًا، وتعمل حتى أثناء النوم. على عكس العين التي لا تعمل إلا في النور، وفي وقت الصحو، وفي مجال البصر.

هذا الشاب هو شاب وغني وله خلق رفيع، وركع أمام ربنا يسوع، وسأل سؤالاً ربما يندر أن يسأله شاب في عمره: "مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ" (مر ١٠: ١٧). فقال له: "أَنْت تَعْرِفُ لْوَصَايَا" (مر ١٠: ١٩)، فقال الشاب: "يَا مُعَلِّمُ، هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي" (مر ١٠: ٢٠). "فَنَظَر إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ، وَقَالَ لَهُ: يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: اِذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي حَامِلاً الصَّلِيبَ" (مر ١٠: ٢١).

هذا التسلسل الجميل أشبه بـ "روشتة" سهلة وواضحة ومحددة في أربع نقاط، هي:

١. اذهب بع كل مالك
٢. اعط الفقراء
٣. تعال اتبعني
٤. احمل الصليب

إذا كان هذا الشاب يسمع بأذنه لأطاع السيد المسيح لتوه، ولكن الكتاب يقول: "فَاغْتَم عَلَى الْقَوْلِ وَمَضَى حَزِينًا، لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَال كَثِيرَةٍ" (مر ١٠: ٢٢). كيف يمكنه أن يرث الحياة الأبدية التي سأل عنها مع تعلقه بالتراب وارتباطه بالأرض؟ لذلك يسمونه الغني الحزين. لقد أثبت من خلال هذا الحوار القصير أنه لا يسمع، لا يستوعب، لا يطيع.

إذًا أول صوم في السنة القبطية الهدف منه هو إصلاح الأذن الداخلية أي أذن الطاعة، وأذن الاستجابة، وأذن الإنصات.

ثم يأتي شهر كيهك فيُذكر مثال لشخصية كانت لها أذن حساسة جدًا، وكانت تسمع جيدًا، وتطيع، وتقول: "هُوَذا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ" (لو ١: ٣٨). طوباكي يا أمنا العذراء مريم. ونظل طوال شهر كيهك نتكلم عنها ونمجدها ليس لأنها قديسة وبتول وولدت المسيح فقط، ولكن الأهم هو طاعتها وأذنها واستجابتها واستيعابها.

الصوم الكبير (العين)

هو ثاني صوم يقابلنا في السنة القبطية. هذا الصوم يخص العين وشعاره: "سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ" (مت ٦: ٢٢)، السراج يعني اللجام الذي يوجه كل الجسد. العين هي التي يدخل منها كل شيء. فما هو شكل عينك؟

الصوم الكبير نسميه صوم المسيرة الروحية، أي الطريق. إنه صوم التوبة. وتركز الكنيسة فيه على العين. ففي الأحد الأول تقرأ هذه الآية: "سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ. فَإِن كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً (نقية) فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ نَيِّرًا، وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ مُظْلِمًا" (مت ٦: ٢٢-٢٣).

بعض العيون لا ترى الأمور بسيطة، بل تعقد الأمور تجعلها سوداء. أما العين البسيطة النقية فتجعل كل الحواس نيرة وصحيحة.

ونحن طوال فترة الصوم الكبير نرنم ترنيمة "طوبى للرحماء على المساكين"، فحينما ترى عينك المسكين لابد أن تكون عينك رحيمة..

ومن جمال الكنيسة إننا في نهاية الصوم الذي نركز فيه على العين، تذكرنا الكنيسة بالدرس الأول وهو الأذن، ففي ليله أبو غلمسيس تتكرر عبارة: "مَن لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ" (رو ٢: ١١)، فالكنيسة تكرر التعاليم على مسامع أولادها كالأم الشاطرة وهي لا تمل وتعاليمها ممتدة.

صوم الرسل (الفم)

هو صوم الخدمة الكنسية العملية، التي لا بد أن يسندها الصوم مع الصلاة لأن "هذَا الْجِنْسُ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ" (مت ١٧: ٢١)، لذلك رتبت الكنيسة هذا الصوم.

صوم الرسل هو صوم الفم: أن يكون واضح، ومستقيم، وصادق، وهادئ، ولا تخرج منه العيبة، وأيضًا أن يكون شاهدًا للمسيح. والآية الخاصة بهذا الصوم هي: "وَتَكُونُون لِي شُهُودًا" (أع ١: ٨)، فيصير كل واحد منا شاهدًا للمسيح حيثما يوجد. إسأل نفسك: هل الكلام الذي تقوله يشهد لله؟ أم إنك تضيع حياتك في كلام لا معنى ولا قيمة له؟ هل أنت تحمل اسم المسيح عن استحقاق؟

صوم العذراء (القلب)

هذا هو صوم القلب، كلنا نريد أن يكون لنا قلب العذراء الذي عبرت عنه في قولها: "تُعَظِّم نَفْسِي الرَّبَّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي" (لو ١: ٤٦-٤٧). ونسميه صوم المسرة والابتهاج، أي أن يكون داخل القلب سعادة وفرح و تهليل.

وحينما يصير الجهاز الروحي لك به أذن تطيع، وعين ترحم، وفم يشهد للمسيح، يمتلئ القلب بالفرح والبهجة. هذه هي فلسفة الصوم.

Φύσις = Physic
(فيزيس) =physics بالإنجليزية، وتعني "طبيعة" أي مجموع الصفات (بالنسبة للاهوت تعني مجموع صفات الجوهر).